لمسة نهائية

كان يسير وحده في الشارع المؤدي إلى الطريق السريع وكانت الأضواء ساطعة. عندما أحسستُ بالدم يتدفق في شفتيَّ، أخذتُ أتقلب بالقرب منه وأقفز كقرد وأنكش شعري الطويل وأشدُّه أمامه. أصدرتُ أصواتا غريبة علَّه يجري بعيدًا أو يُبعدني عني، لكنه نظر إليَّ بشفقة أو تأفُّفٍ ولم يفزعْ. كان قلبُه حجرًا وأعصابُه حديدًا. حاولتُ أن أسحب نفسي بعيدًا عنه، لكنه نظر إليَّ من جديد. شممتُ رائحة خوف فاترة نابعة منه. استبشرت بخوفه، فربما دفعه للهرب، وإذا هرب سيخلِّصني من عذابٍ سيلاحقني باقي الليل وطوال النهار إلى أن أنسى قليلا عندما يواجهني شخص آخر في الغد.

تحسستُ الأرض بقدمي، وعندما لمستُ حجرا صغيرا، ملتُ والتقطته وأصدرت صوتا زاعقا صاخبا متداخلة طبقاته لكي يجسِّد حوله موسيقى مرعبة. حرصتُ أن ينزل الحجر بالقرب من قدميه، فلا يشج رأسه أو يُسقطه فاقدَ الوعي، فإذا فقدَ وعيَه سيصعِّب مهمة انتزاعِ نفسي من شفاهي. لكنه رفع قدمه كبهلوان يتفادى السقوط في حفرةٍ وهميَّةٍ ولم يبالِ بتخويفي له.

أحسستُ بالشفقة على ذلك الذي يتعمَّد أن يسير على طريق هلاكه إلى منتهاه. وعندما لم أجد استجابةً منه، جريتُ بضعة خطوات لأكون ملاصقا له. ضخَّمتُ صوتي أكثر من المعتاد وقلت له:

- ابتعدْ.

لم يبتعد.

- تجنَّبْ خَطَرِي، أرجوك.

لم يتجنب شيئا.

- سآكلك. سأشرِّد أطفالك.

نظر لي بحسرة وكأنه يقول لي: "ليس لدي أطفال".

- ابتعدْ. سأشرِّد أهلَكَ.

نظر لي مرة أخرى بسخرية كأنه يقول لي: "هم مشرَّدون أصلا".

- سيتقطَّع قلبُ أحبابك.

ردَّ عليَّ لأول مرة:

– المهاجرون لم يتبقَ في قلوبهم شيء. هل تستطيع أن تجتثَّ الذكريات؟

كان في سؤاله نبرة تحدٍ كأنه يدعوني لأن أفعل شيئا لا أقدر عليه. قلتُ له على الفور كي أزرع في قلبه الرهبة مني بلا مقدمات:

- أنا لا أستطيع حتى الآن سوى أن أجتث الأرواح. الذكريات لا شأن لي بها، والمهاجرون هاجروا. أنا هنا، أنا في هذا الشارع الذي اسْتَدْرَجَكَ، أنا في ليل طويل أوله دمٌ وآخره ندمٌ ونهارٌ مليءٌ بذكريات الدم والندم، فلا أستطيع أن أخلِّص نفسي من ذكريات أسناني، ولا أستطيع أن أوقف أسناني عن طَعم اللحم بدمك الحار.

ووجدتُه يربِّت على كتفي. أحسستُ في حركة يده تفهُّمًا ومواساةً وثقةً لا حدودَ لها. استجمعتُ كل قواي، وأبعدت أسناني عن طريق يده الساقطة من على كتفي. فكَّرتُ أن أردَّ له تفهُّمه بحركةٍ من يدي على كتفه، لكنني خشيتُ أن تقبض يدي على كتفه الآخر وتنغرز أسناني في رقبته لتنتزع حياته بنشوة كأن الإحساس بالنشوة تقدَّمَ على غرز الأسنان، تقدَّمَ على القبضة المُهْلِكَة، ليصير مجرَّدَ أثرٍ لاحقٍ أو مجرَّدَ إجراءٍ روتينيٍّ للمسةٍ نهائيَّةٍ لعملية تمَّتْ بالفعل.

عندما بدأتْ أطرافي تشعر ببوادر النشوة، فكَّرتُ سريعا في طريقة أجعل بها هذا الإنسان الحجري يبتعد عن طريقي، طريقة يعفيني بها من الندم، من الذكريات الدموية، من تاريخ أسود يطاردني في الفواصل بين الإحساسِ برغبة شفتيَّ ولساني بالدم الحار والإحساسِ به في ليلة تالية. تمنَّيتُ أن أكون في فيلم مصَّاصِي دماءٍ، وأن يطول الشارع إلى أن تشرق الشمسُ فأحترق أو

أختفي. لكن الشمس لا تعاديني، ولا أعاديها، وليس لي خيالُ تلك الأفلام. وأي فيلم يطول إلى هذا الحد؟! يبدو أن ذلك الكائن هو الذي كان يتعقبني، ولستُ أنا الذي أتعقبه. يتلكأ كأنه يستمتع بلهفة أسناني على أن تنغرز في رقبته؛ يتدرَّج على مهل في عرض نفسه لتفتتن أسناني به.

كان أرَقِي قبل أن أخرج للشارع لا حدَّ له. نظرةُ أمي المشفقة وهي تفتح باب غرفتي لتنظر إليَّ وهي تعرف أنني لن أنطق بكلمة واحدة تروي لهفتها لسماع صوتي – كانت هذه النظرة تؤجج ألم ذاكرتي وذاكرة ألمي. تمنيتُ أن أسمع صوتي داخل البيت حتى أُسمِعَه لها، لكنه كان يخذلني دائما. وكانت ذاكرتي تُوقَفُ بعنادٍ أليمٍ عند سيارةِ ميكروباص منذ قرابة ثلاثين عاما وعند صراخِ تلميذ انحصر كل كلامه في أصوات لا معنى لها فيما بعد. لا يُخرج لساني صوتا مفهومًا إلا عندما أكون وجهًا لوجه مع شخص في شارع مهجور بالليل، ولا تتجسَّد كلماته عذوبةً إلا عندما تودِّع الشخص الهارب من أمام أسناني.

إنسان بلا أطفال، بلا زوجة، وأهله متفرقون وأحباؤه مهاجرون، ما الذي يمكن أن يجعله يتحرَّك؟ أحسستُ بأنه لن يتحرك أبدًا أو يبتعد عن طريق هلاكه وطريق عذابي، وكأنه يتعمَّد أن يقطِّر الألم المُرَّ في قلبي ورأسي على مهله، ولذا لم أسأله عن اسمه، فإن قتلته اليوم يكفيني إحساسي بتعذيب

روحه المُفَارِقَةِ لي. لن أُضَاعِفَ حجمَ العذاب بمعرفة اسمه، فسيكون اسمُه بديلا عنه، حاضرًا في أذني ليل نهار.

لم أسأل من قبل أحدًا عن اسمه إلا بعدما كنت أتيقَّنُ من أنه ابتعد عنِّي بما يكفي لأن أراه في طريقه إلى الهرب، أراه في حدود الأمان. كل تلك الأسماء تخفف عني ولو قليلا من الذكريات التي تطاردني، من إحساسي بوطأة نَفَسِي الضائع وأمنياتي المستحيلة.

كيف يمكنني أن أسير في يوم من الأيام في شارع هكذا مع إنسان لا تجمعني به سوى المشاعر المسالمة والأحاسيس الدافئة التي تخلو من طعم الدم؟ أثقل من كل تلك المجرات أنا! لو فقد هذا الشخص كل عزيز، لن يساوي كل حزنه ذرةً من ندمٍ، أو قطرةَ برودةٍ تَعْقُبُ الإحساسَ بحرارة الدم، أو ذرة خواءٍ تضاعف الإحساسَ بالضياع.

كانت ذاكرتي تبدو كأنها توقَّفَتْ ولم تعد تتذكَّرُ شيئا قبل ذكريات الدم الحار وإحساسي بالندم. ما الذي أوصلني إلى هذه الحال؟ ما الذي دفعني لذلك؟ لست أدري، وعدمُ معرفتي ألمٌ يُضَافُ إلى ألمي، وإحساسي بالجهل يُغويني كلَّ يومٍ بمحاولة مَزْمَزَةِ الدَّمِ الحار لأعرف ما الذي يجذبني إليه، أو إن تعمَّقْتُ في الإحساس به ربما أستطيع أن أحسَّ بنقيضه فتكتمل معرفتي وأستطيع أن أفتح حاجز الذاكرة ليرجع بي إلى ما دفعني. فإن تمكَّنتُ من أن

أتوصَّلَ إلى طريقة لأوقف بها نفسي، ربما استطعتُ أن أتوقف. لكن نفسي لا تريد أن تتوقف، كأنها تتآمر على ذاكرتي أو رَشَتْها وجعلتها تتوقف عند هذا الحد.

خمَّنتُ أن يكون تفكيري الطويل في الموضوع قد أزاد المسافة بيننا. لكنني وجدتُه بجانبي نسير على الطريق كأننا نتجه إلى جهة نعلمها سويًّا. كانت خطواتي تدفعني. كنت أريد أن أسحبها، لكنها لم تترك لي فرصة، وكانت تسوقني كسائق ميكروباص يستفرد بتلميذ عائد إلى بيته من المدرسة، لا ينزله عند بيته، بل يغلق أبواب السيارة ويسير دون أن يبالي بصراخه ولا يتوقف إلا على طريق مهجورة ليخلع بنطاله ويغرز سكِّينًا أو أسنانًا في أسفل ظهره ليتدفَّقَ الدم حارًّا كلسعاتِ عصا مدرِّسٍ.

عندما وجدت نفسي ما زلتُ بجواره، قلتُ له:

- انظرْ يا...

وكاد يقول لي اسمه، لكنني وضعت يدي على فمه مانعًا إيَّاه من الكلام:

- لا أريد أن أعرف اسمك إلا إذا رأيتُك تجري أمامي هاربًا.

قال لي بكل برود:

- ولماذا أهرب؟

لم أجد أمامي إلا الحقيقة العارية أصدمه بها كي يسارع بالهرب وأتخلَّص من عذابي له وعذابي منه:

- أنا مصَّاص دماء.

أخذ يضحك بهستيرية غريبة، ثم أحسستُ في صوته نشيجًا كأنه يريد أن يبكي أو ينفجر، ثم قال:

- لم يُتْرَكْ لنا دمٌ كي يمصَّه أحد.

لا أدري لماذا أُصِرُّ على عدم المساس به. أخذ وقتًا أكثر مما يجب. لم يرهقني أحد من قبل هكذا. لو يحس بعذابي، بالمجهود الجبار الذي أبذله لكي أمنع أسناني من أن تفتك برقبته، لكان أشفق عليَّ. لكنه ظل على عناده، فأعدتُ عليه كلامي ولكن بطريقة أخرى:

- حتى لو لم يتبقَ لديك دماء، ستنغرز أسناني في رقبتك ويمتص لساني ما تبقى أو أي شيء حلَّ محل الدماء. أرجوك أرجوك أرجوك أرجوك ابتعد.

ولكنه قال:

- جاءت منك يا جامع.

استغربتُ كلامه ونَفَيْتُ على الفور ما يخاطبني به:

- لستُ بجامع.

ضحكَ عاليًا، وقال:

- يبدو أنك ستأخذ فيَّ ثوابًا. أنا لا أؤمن بالانتحار. ولكن لم يتركوا شيئًا لأبنيه أو أرضًا لأزرعها أو صوتًا لأستثمره.

لم أشعر من قبل بأنَّني أؤدي واجبًا لأحد أو أنَّ عذابي مهمةٌ عظيمةٌ يمكن أن تخدم أحدًا، ولا أستطيع أن أخمِّن: هل ما سيحدث بعد ذلك سيُزيد عذابي وألمي أم لا؟ أن أجتثَّ حياةً خدمةً لأحدٍ! كنت طوال تلك السنوات أخدم نفسي، أخدم إحساسًا بالنشوة الفوَّارة يسبق اندفاع الدم، ليس أكثر. لكن هل إن غيَّرتُ الهدفَ من وراء ذلك سيتغيَّر الإحساسُ؟ احتمالٌ واردٌ. يمكن أن يتغيَّر إحساسي بالنشوة ويمكن أن يزداد عذابي وندمي، فقلتُ له:

- انظرْ يا أيها العنيد الذي لا أريد أن أعرف اسمه. أنا لا أساعد أحدًا على الانتحار. أريدك أن تساعدني على أن أبتعد عن قتلك، لا أن أساعدك لكي تنتحر. انظرْ. ها هي يدي. سأريك كيف يتدفق الدم حارًّا. إن أكلتُ يدي هذه، أرجوك ابتعدْ.

لم أستطع أن أصل إلى رقبتي. غرزتُ أنيابي في إصبع يدي. لم أحس بطعم الدم ولم أحس بأية نشوة. غرزت أنيابي أكثر. لم يتغير شيء. انتقلتُ إلى كفِّي وغرزتُ أنيابي حتى أحسستُ بألم كنتُ أدرك أنني أحسستُ به من قبل، لكنَّ ذاكرتي كانت تتآمر على استرجاعه.

عندما وجدَني أنتقلُ إلى باقي يدي، بحث حوله سريعًا وأمسك بحجر في غمضةِ عينٍ وقذف به وجهي. أحسستُ بأنه يضع لمسة نهائية تنزع الموت من أسناني. كان آخر شيء شعرتُ به أنَّ الألم شديد، وأنَّ الدم لا طعم له، وأنَّ أسناني تتكسَّر؛ فأحسستُ بفرح وليد وأنا أترنَّح ويسارع جسمي إلى السقوط على الأرض.

١٥ ديسمبر ٢٠١٠